نـــــجـــــمٌ أَفَـــــل

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

في ليلة الاثنين من شهر شعبان الموافق: ٧ / ٨ /١٤٤٤هـ رزأت أمة مُحَمَّد ﷺ بفقد أحد صالحيها، وبرمزٍ من رموز التأله والنسك، وبواحد من أساطين العبادة والزهد، إنه الوالد الشيخ العابد الناسك: أحمد بن صالح بن عبد الله الحميضي –**صب الله عليه شآبيب الرحمة والرضوان**– وحين يكتب الكاتب عن شخصية عظيمة، وقامة رفيعة مثل الوالد يتعثر القلم، ويُلجَمُ اللسان، ويحار الفؤاد من أين يبتدئ...

أبسموّ أخلاقه، أم بعبادته، أم بصلته لأرحامه وتواضعه، أم بورعه وبعده عن المتشابهات، فهو يُذكّر بابن المبارك، وبجيل الثوري، وبطبقة مسعر بن كدام رضي الله عن تلك الصفوة، وجزاهم الجنة، وأحلهم دار الرضوان.

أم يبتدئ بخلوته مع ربه، وبعده عن الرياء، وأنسه بمناجاة ربه، ومحاسبته الدائمة لنفسه، فقد كان في الورع والتقوى آية ظاهرة، وعلامة بارزة.

وهل يبتدئ بأيامه الأولى أيام صباه، وملازمته مجالس الذكر، وتعلق قلبه بالمساجد ومجالسة العلماء، وطلبة العلم.

ألا لله دهر كنت فيه　　أعز علي من أهلي ومالي

- لقد كان رحمه الله أشبه الناس سريرة بعلانية، وقولاً بفعل، إنْ أَمَر بشيء كان أعمل الناس به، وإن نهى عن شيء كان أترك الناس له.

لقد غيب الموت عنا تلك الصفات الجميلة، والخصال الحميدة.

سبق الفنـاء فما يدوم بقـاء   تفنى النجوم وتسقط البيضاء

فقد فارق الناس الأحبة قبلنا   وأعيا دواء الموت كل طبيب

- لقد كانت أنوار طاعة ربه تلوح على وجهه، ونضرة النعيم تبرق من محيا طلعته، وأحبه الناس لا لتجارته فليس من التجار، ولا لوجاهته فليس من الوجهاء، ولا لمنصبه فليس من ذوي المناصب، فهو رجل قد فرغ من حب الجاه، وحب الغنى، فكان أغنى الناس؛ لا لأنه نال كل شيء، فلا يمكن أن ينال أحد كل شيء، ولكن لأنه زهد في كل شيء، فأحبه الناس لصدقه، وسلامة صدره، ونقاء سريرته، فملأ الأسماع والعيون والقلوب، وبهر الأنظار، يشهد لهذا يوم جنازته فقد كانت مشهودة، وقد قال الإمام أحمد: موعدكم يوم الجنائز .

ملأ الأفـــــواه طيبُ ثنائه   وملك القـــلـــوب بِشرُ لقائه

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: **(إن الله تبارك وتعالى إذا أحب عبداً نادى جبريل: إن الله قد أحب فلاناً فأحبه، فيحبه جبريل، ثم ينادي جبريل في السماء: إن الله قد أحب فلاناً فأحبوه، فيحبه أهل السماء ويوضع له القبول في الأرض)**.

- الوالد خدم الشيخين محمد بن سليمان العليط حفظه الله، وصالح بن عبد الله الرشيد رحمه الله أكثر من خمسين سنة.
- يعتمر ويحج بهما، ومن التحق بهما، ويتلمس حاجاتهم، ويراعي ما يريدونه ويشتهونه من مأكل ومشرب منذ أكثر من خمسة عقود ابتغاء وجه الله، لا يريد منهما، ولا من غيرهما جزاءً ولا شكوراً.
- وخدم العالم العلامة عبد الله بن محمد الدويش عليه رحمة الله إلى أن توفاه الله تعالى.
- وخدم العبد الصالح محمد بن عبد العزيز السليم عليه رحمة الله إلى أن توفاه الله تعالى أكثر من أربعين سنة.

وكأني بهؤلاء الصفوة الصالحة رحمة الله عليهم يقولون في حق والدي:

نميل على جوانبه كأنا   نميل إذا نميل على أبينا

نقلبه لنخبر حالتيه   فنخبر منهما كرماً ولينا

- وكان يوم الجمعة عند الوالد له شأن آخر، ينتظره انتظاراً أحر من الجمر، فهو يوم لا كالأيام، لما فضله الله، وعظمه، وخصه بالفضل والإكرام، فهو يحافظ عليه أشد من محافظته على الدينار والدرهم، فكان يخرج لصلاة الجمعة بعد شروق الشمس بساعة –حيث يجلس بعد الفجر بمصلاه إلى شروق الشمس ثم يخرج إلى البيت يغتسل ويفطر بسرعة– منذ أكثر من نصف قرن.

وكأني به يتمثل قول القائل:

بادر بخير إذا ما كنت مقتدراً   فليس في كل وقت أنت مقتدر

- ويجلس في المسجد بعد صلاة الجمعة إلى بعد صلاة المغرب منذ أكثر من خمسين سنة.
- جلس مرة أحد محبيه يراقب قراءته، فإذا هو يختم القرآن في يوم الجمعة، ختمة كاملة خاصة ليوم الجمعة يقرأ بتأنٍ وتدبر يقف عند آية الرحمة، ويتعوذ عند آية الوعيد، وسأله أحد إخوتي كم تقرأ يوم الجمعة من القرآن فأبى أن يخبره.
- له أكثر من خمسين سنة إذا أذن المؤذن الأذان الأول من يوم الجمعة قام يصلي حتى يخرج الإمام.
- وله أكثر من خمسين سنة إذا بقي ساعة على أذان المغرب من يوم الجمعة يرفع يديه يدعو الله حتى يؤذن المغرب يدعو الله ساعة كاملة.

- في حجه كله أكثر من خمسين حجة يرفع يديه في دعاء عرفة ثلاث ساعات كاملة، مختبئاً عن رفاقه وحده، حيث يدخل عرفة فور انتهاء خطبة عرفة مباشرة دون أن يحضر الخطبة.
- في سنينه الأخيرة لما ترك العمرة في رمضان يخرج للمسجد الساعة التاسعة ضحى في رمضان.
- منذ عقلت الدنيا كان عفيف اللسان لا يجرح أو يسب أحداً إذا خالفه الرأي، فالناس منه في راحة، ونفسه منه في عناء، فكان يُحكّم عقله قبل أن يفعل أو يتكلم، ولا يجعل للهوى لنفسه سبيلاً، ولسان حاله يقول:

فملّكت النهى جمحات أمري لأجري في العفاف على طباعي

- كأنه طبع على معالي الأخلاق، ورقي التعامل، فقد حاز قصب السبق في دماثة الأخلاق، وكرم الطباع، وطيب المعشر.

لم تمت أنت إنما مات من لم يبقِ في المجد والمكارم ذكرا
لست مستسقيا لقبرك غيثاً كيف يظما وقد تَضَمَّنَ بحرا

﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾

تلك المكارم لا قعبان من لبن شيبا بماء فعادا بعد أبوالا

- له أكثر من خمسين سنة في عيادة المرضى، وصلة الأرحام، ولا فرق عنده بين صغير وكبير، لا يرى لنفسه حقاً على أحد.

أولئك آبائي فجئني بمثلهم إذا جمعتنا يا جرير المجامع

- كان كل ما تقدم في السن زاد في العبادة.

وإذا كانت النفوس كبارا تعبت في مرادها الأجسام

- منذ عقلت الدنيا لم تفته تكبيرة الإحرام، بل لم تفته السنة القبلية.

● منذ عقلت الدنيا يطيل أربع ركعات قبل العشاء، ويقرأ في الركعة ثلاث صفحات.

● أما عن اغتنامه لوقته فهو آية في إدارة الوقت، وفي المحافظة عليه، لذا كان في آخر حياته إذا كان في مكة يذهب للحرم الضحى، ويأخذ معه أشياء خفيفة لغدائه حتى لا يذهب عليه الوقت في الذهاب والإياب إلى غرفته، ولا يرجع من الحرم إلا بعد صلاة العشاء بساعة ونصف.

● منذ عقلت الدنيا مداوماً على قراءة القرآن في كل وقته، يقرأه حفظاً، وهو في طريقه إلى المسجد أو في سيارته.

● كان يفعل المعروف ولا ينتظر جزاءه، ويحسن ولا يتحرى مكافأته، جبله ربه على نسيان معروفه وإحسانه.

● كان في أسفاره يتعب لراحة رفقته، ويتحمل المشاق في سبيل تخفيف معاناتهم.

حق الكواكب أن تعودك من علٍ وتعـودك الآسـاد من غاباتها

ذكـــــر الأنام لنا فكان قصيدة كنت البديع الفرد من أبياتها

● كان وقد اعتصره الألم، وأضناه المرض، وأنهكه السقم لما خرج من العناية المركزة للتنويم، يقرأ في اليوم عشرة أجزاء! رغم أن الأوكسجين يضخ في فتحة حلقه، ورغم أنه لا يدخل مع فمه أي شيء من طعام أو شراب.

وفي الجملة: كل الصيد في جوف الفراء.

لو أنظم الزهر النجوم قلائداً في مدحه لم أقض حق صفاته

● وقد ختم الله له الدنيا بخاتمة حسنة، فقد كان آخر ما قال من الدنيا الشهادتين، وعند الإمام أحمد في مسنده وأبي داود في سننه بسند حسن، من حديث معاذ بن جبل ﵁ أن رسول الله ﷺ قال:(**من كان آخر كلامه من الدنيا لا إله إلا الله دخل الجنة**).

● كان يكره المراء والجدال؛ لأنه يحدث الضغينة، ويورث البغضاء فيبدي رأيه، ويقف عند ذلك.

- كان نعم المربي، له أسلوبه المميز حيث كان يأخذنا ونحن صغار إلى الدروس العلمية ومجالس الصالحين.

يذكرني الزمان ولست أنسى مجالس خلدت مجد الزمان

وكان إذا رأى منا ما يكره نصح بطريقة لطيفة، وأسلوب راقي، وعلق قلبه بربه داعياً بالصلاح والهداية لنا.

- ومن أسلوبه المميز في التربية أنه كان ونحن في الصغر يحبب إلينا القراءة، وشراء الكتب، ويصطحبنا معه إلى المكتبة لشراء الكتب.

- كان الوالد يملك همة عالية، وعزيمة صادقة، ورغبة جامحة في طلب العلم، والمصابرة عليه، فقد جرَد على مشائخه كتباً مطولة منها: شرح السنة للبغوي، وزاد المعاد، وزاد المسير، وأضواء البيان، ودفع إيهام الاضطراب، وفتح الباري إلى المجلد العاشر، والأربع المجلدات الأول من الدرر السنية، وهذا غير كتب المتون التي حفظها على مشائخه، وكان يقضي وقت فراغه في مكتبته في الصباح في مطالعة كتب السلف، ويحب كتب التاريخ، ويطرب لها، فقد قرأ كتاب شذرات الذهب في مدة وجيزة، وتاريخ الإسلام، وسير أعلام النبلاء، وطبقات الحفاظ للحافظ الذهبي، والمنتظم لابن الجوزي، وغير ذلك من كتب التاريخ، ومع هذا كان لا يحب أن يظهر بما يوحي أنه طالب علم، بل يحب عدم الذكر والخمول.

- وأما حاله في مرضه فشأن عجيب، فكان صابراً محتسباً، راضياً بقضاء الله، مستسلماً لقدره، رغم أنه كان على سريره أكثر من خمسة أشهر لا يستطيع أي حركة، ولا يأكل ولا يشرب ولا يتكلم، لذا كان صبره على مرضه عوناً من الله له، فقد كان صابراً محتسباً فلم يضجر ولم يجزع، وهذا هو الصبر الجميل، وكان كثيراً ما يكتب -لأنه لا يستطيع الكلام- الصبر ثلاثة أنواع: صبر على طاعة الله، وصبر عن ما حرم الله، وصبر على أقدار الله المؤلمة. ولسان حاله يقول:

إن يأخذ السقم من جسمي مآخذه وأصبح القوم من أمري على خطر

فإن قلبي بـحمـــد الله مــرتـــبط بالـــصبر والشكر والتسليم للقدر

معلقاً قلبه بربه، يلهج بذكره ودعائه: ﴿ رَبِّ إِنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ فلم يتشك ولم يجزع.

إذا ما ألمت شــدةٌ فاصــبر لها فخير سلاح المرء في الشدة الصبر

وإني لأستـحي من الله أن أرى إلى غيره أشكــو أن مسني الضُـر

عسى فــرج به الدهـر حـازماً صبوراً فإن الخيـر مفتـاحه الصـبر

وبعدُ: فهذه شذرات من أخلاقه، ونماذج من سيرته، وقبسات من أخباره، وكل الصيد في جوف الفراء.

- كان الوالد يراقب الله والناس عنه غافلون، ويُفرغ كامل جهده في اللحاق بالعلماء العباد الأولين، فتخلف عن قافلة العلماء العاملين الأولين، أمثال النخعي والحسن وابن المسيب والثوري ليجيء مع قلة من جنسه في آخر الزمان، كي يجددوا تلك الطريقة، ويحذوا حذو هؤلاء السادة، رحمة الله على تلك الأرواح، ورضي الله عن تلك الأشباح، فما حاد الوالد عن تلك السنن، ولا تنكب عن الطريق، كما تتخلف الزهرة عن الكواكب لتكون نجمة الصباح هداية السائرين.

وخصال الوالد الخيّرة كثيرة، ولكن يكفي من القلادة ما أحاط بالعنق، ومن السوار ما أحاط بالمعصم.

والحمد لله على كل حال، وله الحمد على ما أخذ، وله الحمد على ما أعطى.

ويا أبتِ:

ولو أن عمري كان طوع مشيئتي وأسعدني المقدور قاسمتك العمرا

ولو أن حيـــاً كـان قبـراً لميت لصيرت أحشائي لأعظمه قبراً

فأسكنك الله الفردوس الأعلى، وفتح لك باباً إلى الجنة، وفسح لك في قبرك مد بصرك، فما أستطيع مهما قلت أن أوفيك حقك، أو أن أصف بعض خصالك.

وعظم قدرك في الآفاق أوهمني أني بقلة ما أثنيت أهجوكا

وعزاؤنا: "إنا لله وإنا إليه راجعون" قال سعيد بن جبير: ما أعطيت أمة عند المصيبة ما أعطيت هذه الأمة قوله تعالى: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ ولو أعطيها أحد لأعطيها يعقوب ولم يقل: ﴿يَـٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾.

لو كان ينفعني عليك بكائي لجرت سوابق عبرتي بدمائي

وإن العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضي ربَّنا، وإنا بفراقك يا أبتِ لمحزونون.

اللهم أجرنا في مصيبتنا واخلفنا خيراً منها.

- ومن ما يخفف حر المصيبة، ويجلب السلوان، ويضمد الجراح، ويذهب ألم الفراق أنك أنت والدنا، وما عند الله خير لك منا، فجزاك الله عنا من أب خيراً، وجزاك الله على إحسانك بالحسنى، وأسكنك في مستقر رحمته المحل الأسنى، فحياتك عز وفخر، وموتك ثناء وذكر.

لعلي أفي تلك الأبوة حقها وإن كان لا يُوفى بكيل ولا وزن

فأعظم مجدي كان أنك لي أب وأكبر فخري كان قولك ذا ابني

كتبه

إبراهيم بن أحمد بن صالح الحميضي

١٥\٨\١٤٤٤هـ